

المرحلة الثانية: الدعوة جهراً

أول أمر بإظهار الدعوة:

لما تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون وتحمل عبء تبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها نزل الوحي يكلف رسول الله ﷺ بمعالنة الدعوة ومجابهة الباطل بالحسنى .

وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]

وقد ورد في سياق ذكرت فيه أولاً قصة موسى عليه السلام من بداية نبوته إلى هجرته مع بنى إسرائيل وقصة نجاتهم من فرعون وقومه وإغراق آل فرعون معه ؛ وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مرّ بها موسى عليه السلام خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله ، وكان هذا التفصيل جيء به مع أمر الرسول ﷺ بجهر الدعوة إلى الله ؛ ليكون أمامه وأمام أصحابه مثال لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة ، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ البداية ، ومن ناحية أخرى تشتمل هذه السورة على ذكر مآل المكذبين للرسول من قوم نوح ، وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب الأيكة - عدا ما ذكر من أمر فرعون وقومه ؛ ليعلم الذين سيقومون بالتكذيب عاقبة أمرهم وما سيلقونه من مؤاخذة الله إن استمروا عليه ، وليعرف المؤمنون أن حسن العاقبة لهم وليس للمكذبين .
الدعوة في الأقربين:

ودعا رسول الله ﷺ عشيرته بنى هاشم بعد نزول هذه الآية ؛ فجاءوا معهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلاً ، فلما أراد أن يتكلم رسول الله ﷺ بادره أبو لهب وقال: هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة ، وأنا أحق من أن آخذك فحسبك بنو أبيك ؛ وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتقدمهم العرب ؛ فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر مما جئت به فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم في المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال: «الحمد لله أحمده واستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له» ثم قال: «إن الرائد لا يكذب والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، وتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما

تعملون؛ وإنما الجنة أبداً أو النار أبداً» .

فقال أبو طالب: ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقاً لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم غير أنى أسرعهم إلى ما تحب فامض لِمَا أمرت به ؛ فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب ، فقال أبو لهب: هذا والله السوأة ؛ خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم ، فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا .

عَلَى جَبَلِ الصَّفَا:

وصعد النبي ﷺ ذات يوم على الصفا ثم هتف: «يا صباحاه» وكانت كلمة إنذار تحبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم .

ثم جعل ينادى بطون قريش ويدعوهم قبيلة قبيلة: «يا بنى فهر، يا بنى عدي، يا بنى فلان، يا بنى فلان، يا بنى عبد مناف، يا بنى عبد المطلب» فلما سمعوا قالوا: من هذا الذى يهتف؟ قالوا: محمد، فأسرع الناس إليه حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولاً؛ لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش، فلما اجتمعوا قال: أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم.. ما جربنا عليك كذباً، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد وإنما مثلى ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله أى: يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع؛ لئلا يدهمهم العدو ، فخشى أن يسبقوه فجعل ينادى: يا صباحاه» .

ثم دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحَقِّ وَأَنْذَرَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ؛ فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ وَخَصَّ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي كَعْبِ ابْنِ لُؤَيٍّ أَلْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ أَلْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَلْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ أَلْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا بَنِي هَاشِمٍ أَلْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَلْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ أَلْقِدِي نَفْسَكَ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا غَيْرَ أَنْ لَكُمْ رَحِمًا سَأَبْلُهَا بِبِلَالِهَا» أى: سأصلها حسب حقها . . .

ولمَّا تَمَّ هَذَا الْإِنذَارُ انْفَضَّ النَّاسُ وَتَفَرَّقُوا، وَلَا يَذْكَرُ عَنْهُمْ أَى رَدَّةِ فِعْلٍ سِوَى أَنْ

أبا هب واجه النبي بالسوء وقال: تبا لك سائر اليوم أهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَمٍ ۝٥ ﴾ [المد: ١ - ٥] كانت هذه الصيغة العالية هي غاية البلاغ فقد أوضح الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلوات بينه وبينهم وأن عصبة القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتى من عند الله، ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة؛ حتى نزل قوله تعالى: ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝١٤ ﴾ [الحجر: ٩٤].

فقام رسول الله ﷺ يبهر بالدعوة إلى الإسلام فى مجامع المشركين ونواديبهم يتلو عليهم كتاب الله ويقول لهم: ما قالت الرسل لأقوامهم: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وبدأ يعبد الله تعالى أمام أعينهم فكان ﷺ بقاء الكعبة نهاراً جهاراً وعلى رؤوس الأشهاد وقد نالت دعوته مزيداً من القبول ودخل الناس فى دين الله واحداً بعد واحد وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباعد وتباعدها واشمأزت قريش من كل ذلك؛ وساءهم ما كانوا يبصرون^(١).

خُطَّةُ قُرَيْشٍ فِي مَقَاوِمِ الدَّعْوَةِ:

وخلال هذه الأيام اقترب موسم الحج فاجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة وكان ذا سن فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به قال: بل أنتم فقولوا أسمع قالوا: نقول كاهن قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزممة الكاهن ولا سجعه^(٢)؛ قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا بتخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر قال: ما هو بشاعر، وعرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر قال: فما هو بساحر، لقد رأينا السحار

(١) الرحيق المختوم ٨٣ - ٨٥، نقلًا من صحيح البخاري ومسلم.

(٢) زمزمة: صوت خافت.

بسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنا لبقوله لحلاوة، وإنا أصله لعذق، وإن فرعه لجناه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحراً، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره؛ فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة قوله: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهْدَتْ لَهُ تَمَهِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَانًا عِنْدَنَا ۖ سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا ۖ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ ﴾ [القدر: ١١ - ٢٥] .

أما رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس في منازلهم وفي عكاظ ومجنة وذى المجاز يدعوهم إلى الله وأبو هلب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابغ كذاب؛ فصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها^(١).

(١) ابن هشام ١ / ١٨٠ - ١٨٢، الرحيق المختوم ٨٥ - ٨٦.